المبحث الأوّل
توضيح حقائق عن التصوف

المطلب الأوّل: التصوف في اللغة

ورد في اللغة أنَّ الصوف للشاة، ويقال كبش صاف أي: كثير الصوف. وصاف السّهم عن الهدف مال وعدل، والمضارع منه يصوف ويصيف[1].

ويرى بعضهم أنَّ كلمة صوفية كلمة مولدة لا يشهد لها قياس ولا اشتقاق في اللغة العربية[2]. وعلى هذا تكون كلمة تصوف حادثة وغير معروفة عند العرب الأوائل، ولا في عصر الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، كحدوث مصطلح العقائد والكلام والفقه الأكبر، والنحو والصرف على علم اللغة العربية والمنطق وغيرها.

وقد تكلم الصّوفية في الاشتقاقات اللغوية لمصطلح التصوف، قال ابن عجيبة: «من الصوف، لأنّ الصوفي مع الله تعالى، كالصوفة المطروحة لاستسلامه لله تعالى»[3] بمعنى الرضا والانقياد والتسليم لله تعالى.

ومنهم من قال «إنَّه من الصفة، إذ جملته من اتصاف بالمحاسن وترك الأوصاف المذمومة»[4].

---

(١) ينظر: الصحاح للجواهري: ١٣٨٨/٤-١٣٨٩، والقاموس المحيط: ١٦٩/٣، ولسان العرب: ١٠٢/١١-١٠٣، ومعجم مقاييس اللغة: ٣٢٢/٣.

(٢) ينظر: المصباح المنير: ١٦١/١.

(٣) إيقاظ الهمم في شرح الحكم: ٣/٧.

(٤) المصدر نفسه.

ومنهم من قال «من الصفاء، قال أبو الفتح البستي»[1] رحمه الله:

تخالف الناس في الصوفيِّ واختلفوا جهلاً وظنوا أنَّه مشتقٌّ من الصُوف

ولستُ أمنحُ هذا الاسم إلا فـــتىً صَفا فَصُوفي حتى سُمي الصُّوفيّ[2]

وقالوا أيضاً: إنّهُ مشتق من (أهل الصَّفَّة) وهم الرّعيل الأوّل من صحابة رسول الله ﷺ من الفقراء كأبي هريرة وعمار وغيرهم رضي الله عنهم الذين لازموا الاعتكاف في المسجد النبوي، والذين قال الله عنهُم: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٨]؛ لأنّ الصوفي تابع لهم فيما أثبت الله سبحانه لهم من صفات هذهِ الآية[3].

وقيل أيضاً: إنّهُ مشتق من (الصَف)؛ لأنّهم في الصف الأوّل في الإقبال على الله، والبحث عن مرضاته[4].

وقيل إنه مُشتق من (الصُوف)؛ لأن الصُوف لباس خشن، فقد نقل في سيرهم إنَّ الصوف كان لباساً لهم من باب الزّهد والتقشّف والاخشيشان[5].

وقال بعض العارفين: «لابد للصوفي أنْ يتحقق بمعاني حروف اسمه، فالصّاد صفاؤهُ، والواو وفاؤهُ، والفاء فناؤهُ، والياء يقينهُ»[6].

---

(١) علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي، أبو الفتح: شـــاعر عصره وكاتبه. ولد في بست (قرب سجستان) وإليها نسبته سمع من أبي حاتم ابن حبان، وتوفي سنة (٤٠١هـــ). ينظر: الوافي بالوفيات: ٥٦/٧، والأعلام للزركلي: ٣٢٦/٤.

(٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم: ٣/٧.

(٣) ينظر: اللطائف الإلهية: ٣١.

(٤) ينظر: حقائق عن التصوف: ١١-١٢.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ١١ - ١٢.

(٦) اللطائف الإلهية: ٢١.

من خلال تعدد موارد اشتقاقات هذا العلم واختلافها، لا اختلاف تناقض إنّما هو اختلاف ناشئ في أنَّ كل اشتقاقٍ تناول جانباً حقيقياً وموجوداً في علم التصوف.

والظاهر: من خلال تطبيق هذه الاشتقاقات على قواعد اللغة إنَّ أصح الأقوال: هو أنَّ علم التصوف مشتق من الصوفة كما قال ابن عجيبة، لأنَّ نسبة الصوفة هي الصوفية؛ ولأنّ الصوفي شأنهُ الرضا والتسليم والانقياد لله ﷻ... والله أعلم.

ومما ينبغي أنْ ينتبه له: إنَّ مصطلح التصوف والصوفية لم يلق قبولاً عند بعض أهل العلم بسبب المخالفات والأخطاء التي اقترفها بعض المحسوبين على هذا العلم المنتسبين إليه ظلماً وزوراً وبهتاناً، إلا أنّنا يجب أن نركِّز اهتمامنا على المقاصد والمعاني لا على الألفاظ والمباني، فالله تعالى أراد منا إصلاح وإعمار الباطن والظاهر، فالظاهر يصلح بالأحكام العملية المسماة (بالفقه)، والباطن يَعُمر ويَصلحُ بمعرفة الآداب مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ ومع عامة المسلمين. وإن كان تحرز في تسميته بعلم التصوف، فيمكن أن يُسمى هذا العلم بعلم الأخلاق أو علم الروح، أو علم التزكية أو علم الإحسان، أو علم التربية إلى غير ذلك، المهم إصلاح هذا القلب بتخليته من الرذائل وتحليتهِ بالفضائل؛ لأنَّه محط نظر الله ﷻ...

المطلب الثاني: التصوف اصطلاحاً

معنى التصوف: إنَّ التصوف أو الصوفية لفظ لا يشهد له في اللغة العربية قياس ولا اشتقاق، لذا وردت عدةُ أقوالٍ لهذا المصطلح[1].

---

(١) ينظر: الرسالة القشيرية: ٤٢٦.

لقد عُرِّفَ التصوف بتعاريف عدة، حتى أنَّ كلّ إمام من أئمة هذا الفن كان له تعريف مستقل، وسنذكر بعضاً من هذه التعريفات مراعين أشهرها على سبيل الاختصار لا الشمول.

قال الجنيد البغدادي[1] رحمه الله: «التصوف استعمال كلّ خُلق سني، وترك كل خُلق دني»[2].

قال أبو الحسن الشاذلي[3] رحمه الله: «التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها إلى أحكام الربوبية»[4].

---

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم: صوفي، من العلماء بالدين. مولده ومنشأه ووفاته ببغداد سنة (٢٩٧هـ)، قال ابن الأثير في وصفه: إمام الدنيا في زمانه. وعدّه العلماء شيخ مذهب التصوف، صنف كتبا منها ما هو في التوحيد والألوهية، والفناء. ينظر: وفيات الأعيان: ١١٧/١، وحلية الأولياء: ٥٥/١٠، وصفة الصفوة: ٢٣٥/٢، وتاريخ بغداد: ٢٤١/٧، وطبقات السبكي: ٢٨/٢-٣٧، وطبقات الحنابلة: ٨٩، والأعلام للزركلي: ١٤١/٢.

(٢) النصرة النبوية: ٢٢.

(٣) هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز، أبو الحسن، الشاذلي، المغربي، ولد سنة ٥٩١هـ، كان جامعاً لجميع العلوم ولاسيما علم التفسير والحديث، وكان يحضر مجلسه بتونس ومصر أكابر العلماء كابن عصفور ومحيي الدين بن جماعة والعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد وعبد العظيم المنذري وابن الصلاح وابن الحاجب وغيرهم، وكان رأس الطائفة الشاذلية من المتصوفة توفي سنة (٦٥٦هـ)، من تصانيفه: السر الجليل في خواص حسبنا الله ونعم الوكيل، والمفاخر العلية في المآثر الشاذلية. ينظر: شجرة النور الزكية: ١٨٦، والأعلام: ١٢٠/٥، وطبقات الشعراني: ٤/٢.

(٤) حقائق عن التصوف: ٢٢.

وقال رويم بن أحمد [1] رحمه الله عن التصوف: «الاسترسال مع الله على ما يُريد»[2].

قال ابن عربي[3] فالتخلق بأخلاق الله هو التصوف.

قال ابن عجيبة[4] رحمه الله: «التصوف علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخرهُ موهبة»[5].

---

(١) رويم بن أحمد وقيل رويم بن محمد بن يزيد بن رويم بن يزيد أبو الحسن وقيل أبو محمد وقيل أبو الحسين الصوفي يكنى أبا الحسن من أفاضل البغداديين وكان عالماً بالقرآن ومعانيه أحد أئمة أهل زمانه كان عالماً بالقراءات: من أقواله: الإخلاص ارتفاع رؤيتك عن فعلك والفتوة أن تعذر إخوانك في زللهم ولا تعاملهم بما يحوجك إلى الاعتذار إليهم مات رويم ببغداد سنة (٣٠٠هـ)، ينظر: تاريخ بغداد: ٨/٤٣٠.

(٢) اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي: ٢٦.

(٣) محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله، الشيخ محيي الدين أبو بكر الطائي الحاتمي الأندلسي، والمعروف بابن عربي، ولد في الأندلس في شهر رمضان سنة (٥٦٠هـ)، ذكر أنه سمع بمرسية من ابن بشكوال، وسمع ببغداد ومكة ودمشق، حج ولم يرجع إلى بلده، حمل إلى قاسيون ودفن بتربة بني الزكي. توفي في الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة (٦٣٨هـ). ينظر: فوات الوفيات: ٣/٤٣٥، والبداية والنهاية: ١٣/١٥٦.

(٤) أحمد بن محمد بن المهدي، بن عجيبة، الحسني الأنجري، مفسر من أهل التصوف من أهل المغرب ولد سنة (١١٦٠هـ) وتوفي سنة (١٢٢٤هـ) ودفن ببلدة أنجرة (بين طنجة وتطوان) له كتب كثيرة: ينظر: الأعلام للزركلي: ١/٢٤٥.

(٥) ينظر: معراج التشوف إلى حقائق التصوف: ٤.

- قال ابن خلدون[1] رحمه الله في مقدمته: «هذا العلم من العلوم الحادثة في الملة، أي: حدوث تسمية - وأصله أنّ طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة، وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة»[2].

وقد اعترض على تعريف ابن خلدون لعلم التصوف في أنه لم يتناول كل جوانب هذا العلم، إذ إنَّهُ تناول الجانب العلمي لعلم التصوف المسمى بـ(الطريقة) و لم يذكر الجانب الثاني لهذا العلم وهو ثمار تحقق الجانب الأول، وهو الشهود، والعيان، والمحبة، والكشف، والكرامة، وغيرها المعبَّر عنها بـ(الحقيقة)[3]، والحق: أنَّ ابن خلدون عالج نمو المصطلح وتطوره عبر الزمان، وأبان منهجية رائعة ومثيرة للإعجاب عن الدوافع والأسباب الداخلية

---

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن، أبو زيد، الحضرمي، الأشبيلي الأصل التونسي ثم القاهري، المالكي، المعروف بابن خلدون، عالم، أديب، مؤرخ، اجتماعي، حكيم. وولي في مصر قضاء المالكية. وأخذ الفقه عن قاضي الجماعة ابن عبد السلام وغيره. من تصانيفه: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر وتاريخ ابن خلدون، وشرح البردة، ينظر: شذرات الذهب: ٧٦/٧، والضوء اللامع: ١٤٥/٢، والأعلام: ١٠٦/٤، ومعجم المؤلفين: ١٨٨/٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ٦٧.

(٣) ينظر: اللطائف الإلهية: ١٩.

والخارجية، التي كان لها الأثر في إضافة معان جديدة للمصطلح وإسقاط أخرى لها ارتباط به، والداعي لهذا في رأيه الصائب أمران: **الأوّل**: طبيعة المنهج الصوفي، **الثّاني**: تطور موارد الثقافة الإسلامية.

قال الشريف الجرجاني رحمه الله[1] عن التصوف: «تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، واستعمال ما هو أولى على السرمدية، والنصح لجميع الأمة والوفاء لله تعالى على الحقيقة واتباع رسول الله ﷺ في الشريعة»[2].

- وقال أحمد زروق رحمه الله[3] في قواعدِه: «التصوف علم قصد لإصلاح

---

(١) علي بن محمد بن علي الحنفي الشريف الجرجاني، ولد سنة (٧٤٠هـ) بجرجان، وتوفي في شيراز سنة (٨١٦هـ)، إمام كبير، حضر مجلس قطب الدين الرازي حتى فلق في تحصيل العلوم كل محقق، ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، الباب الحلبي: ٢٩٦/٢، وكتاب روضة الجنات في أحوال العلماء والسادات: ٣٠٢/٥.

(٢) التعريفات: ٦٣-٦٤.

(٣) هو أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى، أبو العباس، البرنسي الفاسي، المالكي، الشهير بزروق. فقيه، محدث، صوفي، ولد سنة (٨٤٦هـ)، وتوفي سنة (٨٩٩هـ)، من تصانيفه: شرح مختصر خليل، وشرح رسالة أبي زيد القيرواني، والبدع التي يفعلها فقراء الصوفية، تأسيس القواعد والأصول وتحصيل الفوائد لذوي الوصول، وشرح الأسماء الحسنى وشرح الحقائق والدقائق. وفي نيل الابتهاج له تسعة وعشرون شرحاً على الحكم العطائية، وشرحان على حزب البحر للشاذلي، ينظر: نيل الابتهاج: ٨٥، وشجرة النور الزكية: ٢٦٧، والضوء اللامع: ٢٢٢/١، والأعلام: ٨٧/١، ومعجم المؤلفين: ١٥٥/١.

القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه»[1].

الرّاجح: لا يوجد في كل التعريفات تعريفاً جامعاً مانعاً لعلم التصوف، فمن التعاريف ما يحدثنا عن التصوف أنَّهُ استعمال الأخلاق الحسنة، وترك المذموم منها، ومنها ما يتحدث عن أنَّهُ تدريب النفس على العبادة، ومنها ما يتحدث عن تخلية القلب من الرذائل وتحليته بالفضائل، ومنها ما يتحدث عن ترك الدنيا وزينتها والإقبال على الله، ومنها ما يتحدث عن الرضا والانقياد والتسليم لله تعالى، ومنها ما يتحدث عن مراقبة الله في السر والعلانية، وغيرها كثير.. ومرجع هذا الاختلاف كلهِ ليس إلى تناقض عن معرفة سمة هذا العلم، وإنّما سبب ذلك هو اختلاف القوم في مشاربهم وأذواقهم التي وجدوها وأحسوها عند دخولهم في هذا العلم، فهو اختلاف في توصيف ثمار هذا العلم، أو هو اختلاف في أسباب كسبه وطرقه، أما حقيقته ومبتغاهُ، فهو واحد عند الكل وهو كما يقول ابن زروق في قواعدهِ: «ومرجع كلها - أي هذه التعاريف - لصدق التوجه إلى الله، وإنّما هي وجده فيه»[2] والله تعالى أعلم.

وقيل: إنَّ التصوف الإسلامي هو تربية علمية وعملية للنفوس وعلاج لأمراض القلوب، وغرس للفضائل، وإقلاع عن الرذائل، وقمع للشهوات وتدريب على الصبر والرضا والطاعات وإنَّهُ علم وحِكمة، وتبصرة وهداية وتربية وتهذيب وعلاج ووقاية، وتقوى واستقامة، وصبر وجهاد، وفرار من الدنيا وزينتها[3].

---

(١) ينظر: قواعد التصوف: ٦.

(٢) قواعد التصوف: ٢.

(٣) رسالة المسترشدين: ٩.

مما تقدم:

يمثل التصوف جانباً واسعاً من التراث الإسلامي باختلاف الأزمنة والأمكنة، فهو يبحث عن الجوهر الكامن وراء الأشياء والطبيعة والكون ليصل الى الحق المطلق، لذا فقد كان التصوف وما زال منهجاً يتبعه العديد من المسلمين سواء أكان على مستوى الأفراد أم الجماعات متمثلة في الطرق الصوفية، وعلى الرغم من أنَّ التصوف يتسم بالنزعة الدينية إلا أنَّ ظهوره في البداية في المجتمعات الإسلامية جاء نتيجة معطيات تاريخية حيث ظهر كرد فعل لحياة الترف والبذخ التي سادت المجتمعات الإسلامية بعد الفتوحات الإسلامية، وفيه سعى المسلمون للتخلص من الغرور والعجب بالنفس والخروج من هذا العالم المتغير المحدود بالزمان والمكان إلى المطلق والسعادة المطلقة حين يخرج من قصور ذاته، وعالمه المحدود إلى ذلك المطلق اللامحدود وحينها تتحد روحه بأهل الحق ليجد السعادة الحقيقية أو يصبح الإنسان الكامل.

وفي بدايات الحضارة الإسلامية وتكونها غلب الدين على نمط الحياة في المجتمعات الإسلامية، ثم نشأ التصوف وازدهر ليسود ثقافة تلك المجتمعات منذ القرن الخامس الهجري، فكما أنَّ التصوف يسعى لتحقيق الشكل الجوهري والوصول للكمال الإنساني من خلال تجربته الذاتية الخاصة، تسعى العلوم الإسلامية أيضاً للوصول إلى الجوهر الخالد الذي يمثل المضمون والحقيقة المطلقة من خلال تلك التجارب.

تعددت الآراء والتحليلات المختلفة التي تحدد نشأة التصوف الإسلامي، فبعض المستشرقين ردوا نشأة التصوف الإسلامية إلى دوافع وتأثيرات فارسية، وهندية، وأفلاطونية وإلى أسباب مسيحية، وهناك من رأى أنَّ التصوف محدث

ظهر ضمن الإسلام نفسه، وأنَّ الدين لا يدين بالقليل ولا بالكثير لمعطيات الثقافات الأجنبية، وعلى الرغم من خضوع التصوف إلى إشعاعات فكرية صادرة عن الحياة الزهدية الصوفية والفكرية للمسيحية الشرقية، فإن النتاج كان نسيجاً إسلامياً يتبع طرازاً إسلامياً متمايزاً، ومن ثم فإنَّ نظاماً صوفياً متقناً نشأ وتبلور بصورة ذاتية داخل الإسلام، وعلى جانب آخر هناك من الباحثين الذين قاوموا القول بالتأثيرات الأجنبية كعوامل منشئة للزهد، إنَّ في القرآن البذور الحقيقية للتصوف عامة، وهذه البذور كفيلة وحدها بتنميته في استقلال عن أي غذاء أجنبي، وقد انتهى هذا القول في نشأة المصطلح الصوفي في الإسلام إلى أنَّ مصادر المصطلحات الصوفية أربعة: الأوّل القرآن، وهو أهمها، والثّاني العلوم العربية الإسلامية كالحديث والفقه، والثّالث: مصطلحات المتكلمين الأوائل، والرّابع: اللغة العلمية التي تكونت في الشرق في القرون الستة الأولى[1].

(١) ينظر: التصوف وأثره على الفن الإسلامي، أ. م. د. هيام مهدي سالمة، بحث منشور في مجلة جامعة حلوان، الشهر الثامن، ٢٠١٧: ١٥٨.